المحاضرة العاشرة :

الرسائل الأدبية

في المشـــرق والمغـــرب والأندلـــس

تعتبر الرسائل الأدبية من أهم الفنون النثرية التي عرفت منذ القدم، وقد تطورت الرسائل الأدبية كثيرًا على مر العصور ووصلت أوجها في العصر العباسي، وفي هذه المحاضرة سنتعرف على ماهية الرسائل الأدبية وخصائصها وسنتتبع أهم آثارها الأدبية في المشرق والمغرب والأندلس :

أولا – مفهوم الرسائل الأدبية : نجد عددا من التعاريف وسنقتصر على هذين التعريفين :

- ✓ " وهي تلك الرَّسائِلُ يُرسِلُها أديبٌ إلى أديبٍ آخَرَ مُناقِشًا إيَّاه، أو متحَدِّثًا في قَضِيَّةٍ أَدَبيَّةٍ، أو عن خِبرتِه في عَصرٍ مِنَ العُصورِ"
- ✓ " هي نوع أدبي يبين فيها الكاتب آراءه في شخصيات معينة أو في المجتمع أو في قضايا فكرية أو دينية أو فلسفية، أو تكون خليطا من هذا وذاك. وقد تطول الرسالة حتى تصبح كتابا قائما بذاته"

يتضح من خلال التعريفين أن الرسالة الأدبية هي قطعة أدبية يناقش فيها أديب ما موضوعا معينا، وهي ليست بالطويلة حتى تبلغ حجم كتاب ولكنها تشبه المقالة ، وكانت أول أمرها تشبه ما يدور من المراسلات العادية ، ثم تطور المعنى مع الزمن ، فصارت تشمل القطع الأدبية المكتوبة لغرض خاص ،ومن نماذجها : رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .وقد أوضح الدكتور شوقي ضيف أن الرسالة الأدبية هي:" التي تعنى بالكتابة في موضوع محدد"،ولهذا فكثير من الدارسين لا يدرجونها في الرسائل إذ :"يدخل هذا النوع في باب التأليف وليس من باب الترسل ،ويكون ذلك نادرا"

أما الباحث صالح بن رمضان فيرى أن الرسائل الأدبية مختلفة الأشكال والوظائف فمن ناحية الأشكال فجد نوعينّ من الرسائل: الأول شعري، والثاني نثري، لكن هناك رسائل أدبية تمزج بين الجنسين، أما من ناحية الوظائف فهناك رسائل أدبية ذات وظيفة إنشائية وهي إنتاج صناعة

الترسل، ورسائل ذات وظيفة تثقيفية ونقدية ،وقد أدرجها مؤرخو الأدب ضمن باب النثر الأدبي التأليفي .

وقد وصف حنا الفاخوري شساعة الموضوعات التي تتجه إليها الرسالة الأدبية وعدم اقتصارها على لون معين بقوله :" أما الترسل الأدبي فقد انصرف إلى جميع الكتاب واحتوى على الإخوانيات بأصنافها والمناظرات والمناقشات والمقدمات، والقصص الخيالية..."

تشير الأقوال السابقة إلى أن الرسائل الأدبية هي نصوص مطولة ، يسجل فيها الكتاب آراءهم ويدونون فيها خواطرهم فيناقشون مسائل متصلة بالأخلاق والسلوكيات ،والسياسة ووصف الطبيعة ،والشكوى ونقد الحكم وتصوير المجتمع ،وفيما يرونه من شؤون أدبية أو اجتماعية أو فكرية ،أو يناصرون مذهبا أو فئة على أخرى ، أو يكتبون من باب الدعابة والهزل أو السخرية وغير ذلك .

ثانيا : الرسائل الأدبية في المشرق :

إن الظروف التي أحاطت بعملية التدوين في نهاية العصر الأموي كان لها أثر حاسم على تطور النثر العربي ،فقد تبوأت الرسائل الأدبية منذ ذلك العصر مكانة سامية على يد عبد الحميد الكاتب ،وتضاعفت أهميتها ومكانتها خلال العصر العباسي فتشعبت موضوعاتها وتزايدت أغراضها بتغير أوجه الحياة والحضارة وازدياد الحاجة إليها " من هنا بدأ أدب الرسائل يطرق موضوعات لم يكن ليخوض في غمارها كتاب الرسائل في العصور السابقة...كرسائل الفكاهة والتندر والسخرية "، كما أن الحرية الفكرية أسهمت بقسط وافر في شيوع هذا النوع من الرسائل ،وقد تفنن الكتاب في عرض آرائهم وتنافسوا في إبراز مواهبهم العقلية ومهاراتهم البيانية. وهذا ما أوضحه الدكتور زكي مبارك في قوله :" إن الكتاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفني في القرن الرابع قد اهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت هذا العصر ، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير، ولم يشتركوا في الأزمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها قوتهم الأدبية"

أما موضوعاته فتمثلت في :

- ✓ وصف الطبيعة وكل ما تحويه من حيوان أو جماد ،كما وصفوا الصيف وحره والشتاء وقره .

- ✓ فضلا عن ذلك أطالوا الوقوف عند وصف البلاغة والشعر والنثر والكتابة ،والكتب المرسلة إليهم ،ووصفوا أدوات الكتابة كالقلم والدواة والقرطاس .
- ✓ اهتموا بوصف الشخصيات وكذلك الطبائع الإنسانية ونزعاتها المتباينة ،وأمزجتها المتقلبة .
- ✓ الرسائل الهزلية والمفاكهات الأدبية: وقد تزعم الجاحظ هذا النوع بامتياز .

. ومن أبرز الرسائل الأدبية في ذلك العصر: رسالة التربيع والتدوير للجاحظ يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب، ورسائل أبي إسحاق الصابي ، ورسالتا الغفران والصاهل والشاحج للمَعَرّي ، وقد شملت رسائل المعري مواضيع اجتماعية وفلسفية كثيرة. وكذا رسالة سهل بن هارون في مدح البخل وبيان فضيلته على الكرم.

ثالثا: الرسائل الأدبية في المغرب والأندلس :

سارت الرسائل الأدبية في المغرب والأندلس على نهج نظيرتها في المشرق ،وهذا ما لمح إليه أحد الباحثين حين صرح بأن تلك الرسائل لم ينلها تطور أو تغيير:" ...بل تظل مصرة على السير في ركب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها وإنما تظل أمينة على متابعة نظائرها في الشرق" ، والملحظ الأهم في هذه البيئة هو كثرة الرسائل الأدبية وانتشارها على نحو غير مسبوق .

على الرغم من أن الرسائل الأدبية الأندلسية استلهمت كثيرا من أساليبها وموضوعاتها من نظيرتها في المشرق ،غير أن الأمر لم يتوقف عند حد التقليد، فقد أبرز كتاب الرسائل الأدبية في بيئة الأندلس إبداعا وتفننا في الموضوعات، -أما في الأساليب فقد طغت الصنعة والسجع منها خاصة على معظم أبواب النثر وهي الحال التي تميز بها النثر في جميع الأقاليم - ، إذ نلحظ أن الكتاب الأندلسيين أضافوا إلى الأغراض المعهودة أغراضا جديدة لم يعرفها الترسل في المشرق مثل الرسائل التي تتحدث عن الحروب والمعارك وتصفها بشكل بارع جدًا، كما نجد حوارات بعض الرسائل الأدبية بين الزهور والنوار وتناولت وصف الطبيعة، وحوى بعضها الآخر الدعابة والفكاهة. وتعد رسالتا ابن زيدون : الرسالة الهزلية والرسالة الجدية أشهر الرسائل الأدبية الأندلسية ،إضافة إلى رسالة (التوابع والزوابع.) لابن شُهيد ومعه ابن حزم الأندلسي في رسالة طوق الحمامة في الألفة والألاف وكذلك ابن خفاجة في رسالة وصف الطبيعة ،وابن أبي الخصال في الرسائل الزرزورية..

ومن أهم موضوعاتها:

- ✓ رسائل تخيلية : وهي رسائل تتضمن مناظرات وحوارات أحيانا تكون بين الجمادات، كالحوار بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، والحوار بين مدن الأندلس في رسالة كتبها أبو بحر صفوان بن إدريس، إلا أن أبرز ما كتب من رسائل في هذا الموضوع رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد أرسل بها لصديقه أبي بكر ابن حزم، وهي قصة خيالية تحكي سياحة شاعر في وادي الشياطين ، يلتقي البطل خلالها بشياطين أُلكتاب والشعراء، فيحاورهم ويحاورونه، والتابع الجن والزوبعة الشيطان، وسماها هكذا؛ لأنه يذكر في مطلعها أن شيطانا تراءى له، وهو ينظم شعرا فأجازه، وبعد تعارفهما، حمله الشيطان إلى وادي الجن، نزولا عند طلبه، حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء، كما التقى بطائفة من شياطين كتاب المشرق كابن المقفع والجاحظ وعبدالحميد الكاتب وبديع الزمان الهمذاني.
- ✓ رسائل هزلية تهكمية :حقق هذا النمط من الرسائل في الأندلس -على غرار المشرق- شهرة وذيوعا كبيرا بسبب ما للأندلسيين من ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة ،واللذين يتضحان في كثير من رسائلهم ،من أشهر رواد هذا النمط محمد بن مسعود، الذي كتب لابنه رسالة نصح هزلية بأسلوب تهكمي.
- ✓ رسائل الحب العذري: تمثل رسالة **طَوْقُ اَلْحَمَامَة** واسمها الأصلي **طَوْقُ اَلْحَمَامَة وَظَلَّ اَلْغَمَامَةَ فِي اَلْأُلْفَةِ وَالْآلَافُ** . لابن حزم الأندلسي أشهر نماذج هذا النوع ، وهي رسالة وصفت بأنها أدق ما كتب العرب في دراسة الحب ومظاهره وأسبابه وتحتوي الرسالة على مجموعة من أخبار وأشعار وقصص المحبين، كما عالجت بالبحث والدَّرس عاطفة الحب الإنسانية اعتمادا على شيء من التحليل النفسي من خلال الملاحظة والتجربة.
- ✓ الرسائل الشوق النبوية : وهي رسائل أرسلها الكتاب الأندلسيون إلى المدينة المنورة مع الحجيج، سطروا فيها مدى حبهم واشتياقهم لرسول الله ولمدينته، وللصلاة في روضته الشريفة، ولعل الكثير من الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت بها الدولة الأندلسية خاصة في نهاياتها جعلت أهلها يميلون إلى التضرع إلى الله تعالى ونزوحهم عن ملذات الدنيا إلى نعيم الآخرة وسنة رسول الله، كما كان من الرسائل من يكتبها الحجيج أنفسهم ممن يعودون ويشعرون باشتياق كبير للعودة إلى المدينة المنورة مرة أخرى فتنطلق ألسنتهم وأيديهم بالكتابة.

رابعا : خصائص الرسالة الأدبية : ومن أهم هذه الخصائص :

1-بلغ كتاب الرسائل الأدبية شأوا بعيدا بنثرهم وتنميقه إلى حد أنه يداني الشعر ويضارعه في رقته وموسيقاه ،فأصبح ترسل أكثرهم " نثرا منظوما" ، لاعتماده على الإيقاع والموسيقى : موسيقى السجع والازدواج والتوازن إضافة إلى زخارف البديع الأخرى .

2-تفنن كتاب الرسائل في الخيال والتصوير الفني فأغربوا وأبدعوا، واخترعو صورا طريفة ،مع العلم أن هذه الخاصية من أهم وأبرز خصائص الرسائل الأدبية، حيث يلجأ الأدباء إلى الإكثار منها، وذلك لكي يستعرضوا الإمكانيات الأدبية الكبيرة التي يمتلكونها.

3-استطاع الكتاب لسعة ثقافتهم وقوة ملكاتهم أن يظهروا طرافة في التفكير وجدة في المعاني ،فضلا عن عن براعتهم في التصوير والقدرة على تحليل أدق المعاني وتصوير المشاعر الإنسانية .

4-تداخل الأجناس :استلهم كثير من الكتاب الأدباء مظاهر التراث العربي والإسلامي في الرسائل الأدبية ، كتضمين الشعر وحله ،الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ،وتضمين الأمثال السائرة، والحكم البليغة، وتوظيف الحكاية الشعبية، واعتماد ذلك في صناعة الترسل حتى غدت دعامة مهمة وأساسية في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن .

5-شكلت معارف وثقافات الأمم الأجنبية رافدا مهما أسهم في تطور ونضج هذا الفن النثري من ناحية الأساليب وطرائق التعبير وكذلك المضامين ،وهذا تجلى بوضوح في رسائل أعلام الكتاب المشهورين كابن العميد والصاحب بن عباد

6-جنوح كتاب الرسائل ناحية الفكاهة والمرح أو السخرية والتندر .

خاتمة : يتضح من خلال ما تقدم أن الرسالة الأدبية بلغت شأوا كبيرا في العصر العباسي فتناولت مواضيع جديدة لم تكن معروفة في بيئاتها الثلاث بسبب الامتزاج الحضاري ، كما سيطرت على بعضها النزعة العقلية وعلى بعضها الآخر روح الدعابة والمفاكهة والسخرية ،فيما غلبت على بعض منها النزعة النقدية ، ومن جهة أخرى نلمح أن الرسائل الأدبية جمعت مزيجا من الأجناس الأدبية التي تعبر عن ثقافة واسعة لدى كاتبيها .

مراجع المحاضرة :

الجاحظ : رسالة التربيع والتدوير ،

زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع ، 1/ 154

[1] -**مصطفى الشكعة:**

- **شوقي ضيف**: العصر العباسي الأول،

[1] -. **يوسف عيد:** دفاتر أندلسية، مؤسسة ناشرون، ط،1 ط رابلس، 2006م، ص539.

[1] -ينظر **صالح بن رمضان:**الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، دار الفا اربي للنشر والتوزيع، ط،2 تونس، ،2007 ص 12-15.

[1] -**حنا الفاخوري :**

[1] -**غانم جواد رضا الحسن** : الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، دار الكتب العلمية ،بيروت ط1، 2011، ص133.

[1] - موقع الكتروني : https://dorar.net/arabia/2892 .

[1] - **حسن بن جابر المدري الفيفي**: نبذة مختصرة عن: تطور النثر العربي القديم (نثرقديم)، موقع الكتروني:https://faculty.ksu.edu.sa/ar/halfaify/blog/276734